

جورج مارسى تلمسان - المدينة التجارية و الحرفية -

أ. مباركى عبد المجيد
جامعة سعيدة

جورج مارسى مستشرق فرنسى ولد فى 11 مارس من سنة 1876 بمدينة رين Rennes ينحدر من عائلة ينتمى أفرادها للفن و الأدب. بدأ حياته رساما فدرس بمدرسة الفنون الجميلة بباريس و تخرج منها أما علاقته بالثقافة الإسلامية كانت بعد زيارته لمدينة تلمسان حيث كان أخوه وليام مارسى أستاذا بالمدرسة، هذا الأخير اشترك معه سنة 1903 فى تأليف كتاب حول العمارة الإسلامية بمدينة تلمسان ثم رحل إلى مدينة قسنطينة، أين هذا حذو أخيه ومارس مهنة التدريس ليعد فى هذه المرحلة أطروحة بعد أن تمكن من الولوج فى المجتمع الجزائري الإسلامى فتعرف أكثر على تاريخه و لغته ومنظومته القيمة، و قد كان عنوان الأطروحة "العرب فى بلاد البربر من القرن الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر" وقد تم مناقشتها بالسربون.

هذه الأطروحة قادتة ليشغل سنة 1919 أول كرسي لعلم الآثار الإسلامية بكلية الآداب بالجزائر ثم مديرا لمتحف الآثار و الفنون الإسلامية سنة 1929. تحصل على جائزة الجزائر الأدبية الكبرى سنة 1952 ،توفى بباريس يوم 20 ماي سنة 1962.

لقد كتب جورج مارسى فى المجلة الإفريقية سنة 1936 عن تلمسان يقول "إذا أخذتني متعة الكتابة فى يوم من الأيام لأكتب مذكراتي و تاريخ حياتي فإني سأعنون فصلا منها بـ "Tlemcen ou l'Initiation" حينها كنت شابا (1900/1899) كان شعري طويلا أسود اللون لم يبيض بعد كما هو عليه الآن، و كنت أهوى الرسم وأمتنه...علاقتي بأهالي المدينة كانت طيبة ،لقد كان يناديني أطفال تلمسان باسم عربى وعندما كنت أمر بأزقة تلمسان الجميلة

وبدروب ريفها اللطيف- وأنا بقبعتي الكبيرة ولوازم الرسم التي لم تكن تفارقني- متوجها نحو مئذنة "سيدي بومدين" أو أعالي وصخور "لالة ستي" فإنهم يحتوني على السرعة حتى لا يفوتني منظر الشمس الجميل أثناء المغيب حين أكون أرسم.

لقد ترددت أيضا على مساجد تلمسان أين كان المصلين كلهم يعرفونني، وكنت أتمتع بجمال عمارة هذه المساجد لحد أن أبقي لمدة طويلة من الوقت وأنا أرسم بعض زوايا المسجد الجميلة بأقواسها و زخرفتها...

لقد اطلعت في مكتبات باريس عن الكتابات المتواضعة عن الفن الإسلامي، لكن عندما تجولت بنفسى و معى بوصلتى و مقياس مبرى أدركت حقيقة هذا الفن المعماري من خلال عمائر تلمسان، هذه المدينة التي زادها تميزا طيبة سكانها الذين لا زلت أذكر منهم شيوخ المدرسة "سي أحمد بلشير" "سي بن يوسف البغدادي" "سي الحاج بن يمينه" و العالم القاضي "سي شعيب".

في هذا الجو المتميز ألقت أول كتاب لي و أدركت عالما جديدا و تعرفت على ثقافة المجتمع الإسلامي من خلال عادات و تقاليد و أعراف التلمسانيين، التي قادتني للوقوف عند مقدمة هامة بخصوص الحضارة الإسلامية. إنها مدينة الآثار و التاريخ⁽¹⁾.

لقد سحرت مدينة تلمسان جورج مارسى وكانت كما عبر عنه سابقا مصدرا للإبداع و كتاباته وجعلته يكتشف حقيقة العالم الإسلامي في جانبه الثقافي و الحضاري نظرا لوزن هذه المدينة تاريخيا و ثقافيا.

إننا لا نريد بمساهمتنا هذه أن نبين ما كتبه جورج مارسى عن آثار المدينة وعن مراحلها التاريخية التي مرت بها و عن أعلامها الكثيرين بل هي مساهمة تصب في جانب نحسبه مهما في عملية التمدن و التحضر يتعلق بالحياة المعيشية المتمثلة في تجارة و حرف أهل تلمسان، وفي الدور الذي لعبته المدينة في ربط الشمال بالجنوب -تجاريا- بفضل موقعها الجغرافي.

تحدث جورج مارسى عن هذا الجانب في الفصل الثامن والأخير من مؤلفه الذي ترجمه سعيد دحماني والمعنون ب تلمسان، وفي هذا الصدد يعترف بأن المؤرخين لم يوفوا هذا الجانب حقه في دراساتهم لتاريخ المدن والحضارات رغم ما له من أهمية قصوى في فهم ماضى و حاضر المدينة.

إن تلمسان لم تكن فقط عاصمة سياسية وموطن إشعاع صوفى ومركز ثقافى حضارى، بل هي أيضا منطقة للتجارة والصناعات الحرفية التقليدية التي جعلت منها مدينة ثرية تستقطب اهتمام التجار والحرفيين.

وعندما يطرح السؤال ما هي المؤهلات التي جعلت من هذه المدينة مركزا تجاريا ومنطقة عبور وتواصل في حين هناك مدن أخرى لها وزنها التاريخي في المغرب الأقصى مثلا لم تلعب هذا الدور؟ فنجد جورج مارسى يقول في هذا الشأن بأنه "لفهم دورها الاقتصادي لا بد من تذكر الوضعية التي احتلتها في شمال إفريقيا و التي حددت أهميتها العسكرية منذ التاريخ القديم. و من المعلوم أنه يتقاطع بها مسلكان طبيعيان المسلك شرقا-غربا الذي يتجه نحو المغرب الأقصى عن طريق فتحة تازا آتيا من بلاد تونس عبر واد الشلف أو سهول الداخل العليا، و المسلك شمالا-جنوبا الذي يصل البحر الأبيض المتوسط بالصحراء"⁽²⁾ ثم يعود ليعقب بأن هناك مدن أخرى كانت عبارة عن نقاط تربط الشمال بالجنوب و الشرق بالغرب، لكن ما اختلفت فيه عن تلمسان هو أن هذه الأخيرة شبه جبلية يتصل فيها السهل مع البحر، أما المدن الأخرى كفاس مثلا فإن جبال الريف تحول بينها و بين الساحل و مكناس و هي حواجز غير موجودة في ما يربط تلمسان بالمناطق الأخرى ويقول هنا "و يربط تلمسان ببلدان ما وراء البحر ميناءان فوهران كان ويبقى حتما نقطة إرساء السفن الآتية من فرنسا و إيطاليا أو المشرق في حين أن تلك الآتية من إسبانيا فتستقر "بهنين" و يذكر الجغرافي الإدريسي أن "هنين" تقابل "ألميريا" "Almeria" "أين الوصول بعد يومين من الإبحار".⁽³⁾

لقد كان جزء من السلع القادمة من "ألميريا" يخزن بتلمسان وأجزاء أخرى توزع في مدن بلاد البربر والباقي نحو الجنوب وفي هذا الصدد فإن جورج مارسى يتحدث بدقة عن الطرق التي كان يسلكها التجار من وإلى تلمسان حيث يذكر أن طريق الجنوب كانت تميل أولا إلى الغرب فتعبر منطقة "التافلات" التي تشغل عاصمتها "سجلماسة" مرتبة مهمة جدا في ماضي شمال إفريقيا، ثم يتوجه التجار عبر مناطق الحمادات فيصلون بعد شهرين و نصف إلى بلاد السودان و يبلغه المرء "بولاتة" أو "ليولاتن" على بعد أربع مائة كيلومتر شمال شرق مدينة "تمبكتو"، ومن هنا يصلون إلى ضفاف وادي السنغال حيث كانت

المدينتان تابعتان لسلطان مالي هذا السلطان الذي نزل عنده ابن بطوطة ضيفا و مجد أمانة رعاياه.

ويتضح من خلال ذلك أن تاريخ المدينة وأهميتها مرتبطان بثرواتها الاقتصادية و حركيتها التجارية التي تتعاقب عليها وهنا يرى روبيرت جولي* بأن تطور التجارة والتبادلات مرحلة مرور مهمة من اقتصاد زراعي إلى اقتصاد متعدد، والتي من خلالها ظهر فرد اجتماعي جديد هو التاجر كما برزت معه النقود والعملات والعناصر الأولى المبشرة بظهور المدينة التجارية لأواخر القرون الوسطى⁽⁴⁾. أضف إلى ذلك فإن هذه المعاملات كان لها الوقع الكبير على المستوى الثقافي والعلمي للمدينة بل هي التي تخلقه ، يقول أحد المهتمين بحركية المدن أن هذه الأخيرة كانت دائما بؤرا و أسواقا فهي مكان النشاطات المتداخلة حيث تنتقل الأفكار والمنتجات وتتسلم قيمتها الاجتماعية والاقتصادية، إنها مراكز الخلق والثقافة والإبداع حيث تلتقي الفرص لتبني أمتن أسس الحضارة⁽⁵⁾.

كانت السلع تقايض مقابل منتوج البلاد من عنبر الرمادي و العاج و الجلود و ريش النعام و العبيد و هي تجارة كانت مربحة جدا حيث يقول "مارمول" "Marmol" في هذا "و يتجرون بالتبادل محققين كثيرا من الربح حتى لتكفي رحلتان أو ثلاث ليستغني التاجر".⁽⁶⁾

إن الكثير من التلمسانيين صنعوا ثروة كبيرة من هذه التجارة خاصة بعد أن كونوا صداقات مع أهالي الجنوب، حيث أن بعضهم كانت تربطه علاقة صداقة مع ملك مالي نفسه وأيضا العلاقة الطيبة مع سلطان تلمسان نتيجة الرسوم التي كانوا يدفعونها.

لقد تعامل التلمسانيون في استيراد سلعتهم مع تجار من الميريا وفرنسا وإيطاليا وإنجلترا، وهولندا التي كانت تمدهم بأنسجة الكتان حتى أن الكثير من تجار هذه البلدان تعود على مدينة تلمسان الجميلة وعلى طيبة أهلها، فكانوا يأتون بسلعهم و يقيمون بها مدة من الزمن، وكانت القيصريّة مقر تجارة الكثير منهم حيث كانت سوقا كبيرا مجاورا للمسجد الجامع، وقد أزيلت آثاره كما يقول مارسى و بنيت مكانه ثكنة عسكرية.

ونجد مارسى قد شبه هذه السوق ببورصة الأقمشة التي كانت تتم بها المعاملات، وعندما يحدث النزاع حول القياس بالمتر فيحتكمون للمعيار الذي وضعه السلطان أبو تاشفين الأول في شهر فيفري من سنة 1328 (ربيع الثاني 728هـ) وهو موجود بمتحف المدينة.

أما عن سلوك التجار وأخلاقهم في المعاملات فإن مارسى يؤكد أن الغش كان ناذرا فتجار تلمسان عرفوا بالصدق والنزاهة والسمعة الطيبة، ويستشهد في ذلك بوصف حسن الوزان لهم بقوله "أنهم أغنياء بالمال مياسير بالأملأك ومنصفون ومشهورون بنزاهة واستقامة أعمالهم الفريدة و ساهرون على وفرة السلع بمدينتهم بطيبة كبيرة عجيبة".⁽⁷⁾

لقد تحدث جورج مارسى كثيرا عن التجارة الخارجية التي عرفتھا مدينة تلمسان لكن في الوقت نفسه يرى بأن الانتاجات المحلية لعبت دورا كبيرا في عملية التجارة شأنها شأن الاستيراد، إذ كانت المدينة مركزا منتجا وعرفت بصناعة النسيج، ويرى يحيى ابن خلدون كما يقول مارسى أن حياكاتها وبرانسها مطلوبة في أسواق الغرب والشرق. ويقول "شوفالي دارفيو" "Chevalier D'arvieux" أن البرانيس هي منتج عرف به أهل تلمسان ويقول في كيفية استعماله "ينسج البرانيس بطريقة تجعل وجهها متموجا مثل الوبر والوجه الآخر مشابها للفرور والمتجدد للخرفان الآتية من منطقة البحر الأسود. فيضع الناس الشعر إلى الداخل في فصل الشتاء وإلى الخارج في فصل الصيف أو عند الأمطار لأن المطر يسيل فوقه دون النفاذ وعندما يمطر طويلا فوقه لا يقوم الناس إلا بنفض البرنوس فيبقى جافا كأن لم يمطر فوقه".⁽⁸⁾

ويأسف جورج مارسى إلى ما آلت إليه هذه الصناعة، حيث تقلصت بشكل كبير حتى كادت أن تختفي بعد الحرب العالمية الأولى وهذا بسبب نقص الاستيراد للأقمشة وبعض المواد الأولية لو لا ظهور نساجين جدد حاولوا تعويض السلع التي كانت تستورد.

و إذا كان هذا هو حظ صناعة النسيج فإن الأمر يختلف كما يرى مارسى فيما يتعلق بحرف أخرى كان مصيرها الاختفاء مثل بعض الصناعات الخزفية و الجلدية و صناعة بعض الأدوات كالأسلحة التي يقول بأنها اندثرت بعد وفاة صانعها الوحيد و هو "سى محمد بن قلفاط".

لقد حاول جورج مارسى فى كتابه المذكور سابقا أن يضع القارئ أمام صور حية للمدينة القطب التى وصفها بالحركية فى جوانب كثيرة منها الجانب التجارى و الحرفى، و هو عندما يتحدث عنها بكل الميزات المذكورة سابقا فإنه يقصد تلمسان القرن الخامس عشر و فجر القرن السادس عشر، هذه المرحلة التى يسميها بالعصر الذهبى، الذى نحن بعيدون عنه على حد تعبيره لكن فى الوقت نفسه يرى بأن ذكرى هذا الماضى الحنينية التى يزينها السراب العادى، لا تزال راكنة فى قلوب التلمسانيين، كما احتفظت بفتنتها التقاليد اللطيفة المخلدة للذكرى لدى العديد منهم.

الهوامش :

¹ - جورج مارسى: مقدمة عن تلمسان، المؤتمر الثانى لفدرالية المجتمعات العالمية بشمال إفريقيا، المجلة الإفريقية عدد 368-369، تلمسان أبريل 1936

² - جورج مارسى: تلمسان، ترجمة سعيد دحماني دار نشر التل، 2004 ص 97

³ - جورج مارسى: المرجع نفسه، ص 98

* روبرت جولى مهندس معمارى و مؤلف كتاب " إعادة بناء المدينة" بالمنشورات الاجتماعية 1996

⁴ - روبرت جولى: الظاهرة العمرانية من العصر الحجرى إلى يومنا هذا مجلة معالم عدد 03 ص 18

⁵ - أنظر: جورج ويلهايم : مشكلات المدينة فى فترة الانتقال ، مجلة معالم عدد 03 ص 31

⁶ - مارمول كربخال : إفريقيا ، ترجمة محمد حجي و آخرين دار المعارف، الرباط 1988 و 1989

⁷ - عن جورج مارسى المرجع نفسه ، ص 99

⁸ - عن جورج مارسى المرجع نفسه ، ص 100